في ذكرى مرور 1200 سنة
على تأسيس فاس

فاس حاضرة متميزة في المغرب. فاس عاصمة من عواصم دار الإسلام. فاس موروث من موروثات البشرية جمعاء. في يناير 2008، يكون قد مرّ على تأسيسها ألف ومائتا عام. إن الاحتفاء بهذه ولا مناسبة للوقوف على كل ما تتركب منه الشخصية الحضارية الذكرى ليس احتفاء بمدينة وجيهة فقط، المغربية، بل إنها فرصة لاستحضار قيّم ديننا الحنيف وتجديد الوعي باجتهاد الإنسان منذ القديم في جعل الأرض ملكا للجميع ومجالا لحسن التعايش. وشرف الإنسان بالعقل, والعقل هو التذكر. فلنتذكر بهذه المناسبة ما ورثناه عن السلف الصالح. وليكن تذكارنا وسيلة لربط الماضي بالمستقبل ومد اليد للأجيال اللاحقة.

فاس هبة من الماء أولا وقبل كل شيء، جعلها وقوعها على عتبة المضيق الجبلي، الذي يفصل تتلقى ما يجري في جوف تلك الأوعار من مياه تنبجس عيونا سلسلة الريف عن قمم الأطلس المتوسط، ومنابع داخل المدينة ومن حولها. وأغزر تلك المنابع ما يسمى بالضبط "راس الماء"، يتفجر منه "وادي فاس "، يجري إلى المدينة من جهة الجنوب الغربي متفرعا إلى فرعين، واحد يتخلل المنازل والمطاحن، والثاني يحمل في تياره الأزبال والنفايات، ذلك بأن فاس من المدن السباقة إلى حل مشكلة الماء الحار.

ثم إن المدينة هبة من خصوبة سهل سايس. ولا حاضرة بدون فلاحة، ولا فلاحة إلا ومن ورائها صناعة، إذ لا مناص لأهلها من إنتاج ما منه غذاؤهم والكنّ واللباس، ولا مناص لهم من صناعة أدوات الإنتاج، فترتب على ذلك مبادلات بين السكان ما لبثت أن اجتذبت التجارة الجهوية والدولية، مستفيدة من وقوع فاس على مسافة سواء من البحر الأبيض المتوسط والمحيط الأطلسي والصحراء، ليس في البقعة المركزية من البلاد، ولكن على الطرق الرابطة حتما بين هذه الآفاق. وهكذا أهلتها الطبيعة ونشاط سكانها لتكون مصهرا انصهرت فيه أبرز مقومات المجتمع والاقتصاد والثقافة والسياسة المغربية.

ففي فاس التحمت العناصر البشرية التي يتركب منها الشعب المغربي دون أن تندثر الأصول.

ومن وراء أسوارها تعلم الأمازغ والعرب والأندلسيون والسودان واليهود آداب التعايش والتدافن. ولا أدلّ على ذلك من أسماء الأحياء والدروب، علما بأن اسم فاس مصدره أمازغي، غطت عليه الأسطورة بعد أن تشبعت الحاضرة بالثقافة العربية. فلقد أخذت عن قرطبة وعن القيروان، إذ سكن الحيّين الأولين منها عرب الأندلس، استقروا بالضفة اليمنى من الوادي، وعرب تونس، استقروا بالضفة اليسرى. وقد تناسلوا كلهم في القبائل المصمودية والزناتية والصنهاجية المجاورة. ولئن كانت التشكيلة الاجتماعية الأصلية

مبنية على القبيلة فكان الاختلاف في المنطلق، فإن أهل فاس ما فتئوا يسعون مجتهدين في الائتلاف والتواصل.

وأساس ذلك الاجتهاد توزيع العمل بينهم لتلبية حاجات الجماعة. فقد تكاملت في المدينة باكرا مجهودات الفرد وغايات المجتمع. وعاد ذلك بالخير العميم على المدينة، ماديا وروحيا. فإن فاس عاصمة الإسلام في الغرب. فيها شيّدت في أواسط القرن التاسع (م) أقدم جامعة مسلمة، جامعة القرويين، التي صارت من توها منارة يستنير بها أولو المعرفة والجدل العلمي، فقصدها الطلاب والعلماء من اليهودية والنصرانية، إذ لا إله إلا الله وهو وحده عليم بذات الصدور. وتشهد فاس بما يميّز المغاربة من صلابة الإيمان ووحدة المذهب الفقهي، كما تشهد على تمسكهم بحقوق الفرد عند الممارسة، وذلك إخلاصا لتعدد الأصول، ولذلك تعددت الزوايا والأضرحة وبيوت العبادة وترسخ في الأذهان أن العقيدة عقيدة التسامح وحرمة الجوار.

وفاس، بعد ذلك كله، هبة من أمير للمومنين، هو المولى إدريس الثاني. إن الشرفاء الأدارسة هم الذين وضعوا أسس الدولة الإسلامية في المغرب. وهذه الدولة إمامة من حيث إنها أسلوب من الحكامة. وهي "حاضرة" من حيث أنها مجال متحضر تتوازن فيه الحقوق والواجبات. وكان المولى إدريس الأول قد سبق إلى إحداث النواة الحضرية الأولى على الضفة اليمنى من الوادي، وذلك حي الأندلس، وقام ولده وخلفه بإحداث النواة الثانية على الضفة اليسرى، وذلك حي القرويين. وظل الحيّان منفصلين إلى أن رأى أمير المومنين آخر، هو يوسف بن تاشفين المرابطي، أن يجمع بينهما وراء أسوار واحدة. ثم قام أمير المومنين من الدولة المرينية ببناء القصور المخزنية على مسافة ميل أوميلين من جهة الجنوب الغربي فيما أصبح يسمى بفاس الجديد، فالحاضرة ناجمة عن أجزاء مختلفة كانت تتوحد بفضل السلطة المركزية وتتفرق عند انعدام تلك السلطة فتطفو العصبيات.

بيد أن فاس ليست وجها من وجوه الحضارة المغربية فحسب، بل هي وجه من وجوه الحضارة الكونية جملة وتفصيلا. ولذلك جعلها المجتمع الدولي إرثا للبشر قاطبة بفضل ما لا يزال يتجلى في أزقتها من مظاهر التمدن العتيق. فإن المتجوّل في أزقتها والمتسوّق من أسواقها يقف على ما كانت عليه أسباب العيش قبل الثورة الصناعية. وهذا إرث أدرك الجميع وجوب صونه لأنه نافدة يطلع منها الإنسان على ما كانت عليه عادات الأجداد وشيمهم. ومما يزيد واجب الصيانة إلحاحا أن مستجدات الحداثة تدفقت وتسربت من كل ناحية فأحدثت ما يحمد وما لا يحمد من التغيير.

ومن علامات التغيير الكبرى النمو الديموغرافي. فإن عدد السكان تضاعف بعشر مرات في أقل من قرن. فاختل بذلك النسيج الحضري في المظهر والجوهر، إذ انضاف إلى المدن الثلاث الأصلية "مدينة جديدة" ثانية حول دار الدبيبغ، أحدثها الاستعمار الأجنبي. ثم انضاف إلى ذلك بعد الاستقلال عدة أنوية حضرية جراء النمو الداخلي والهجرة القروية. مما ترتب عليه متاعب في التواصل والانسجام بين تلك

المركبات التي لا يفصل بينها الفضاء الترابي فقط، بل يميّز بينها امتداد الأزمنة والعصور بين الأساليب القديمة والمحدثات المتسربة. وهكذا صار المعمار الهندسي التقليدي يتآكل ويتمزق في جوار الأحياء العصرية التي تنتشر في شبه استقلال عن بعضها البعض. وكانت الفوارق قبل القرن العشرين بحسب الأحياء التي يتساكن فيها الأغنياء والفقراء. وصارت اليوم بحسب مستويات العيش والانتماء الطبقي. ومن مضاعفات ذلك أن أضحت المدينة مفتقرة لمركز يقصده السكان فإن أطرافها متناثرة مترامية.

ومع ذلك فإنها قائمة في تمام الحيوية والنشاط، تؤدي واجبها من الإنتاج في الاقتصاد الوطني، واعية بأن من لم يتقدم فإنه يتأخر، على ما بين أجزائها من تفاوت في وتيرة التقدم. ذلك بأن أساليب الإنتاج القديمة ما زالت تحرك دواليب الرواج داخل المدينة العتيقة في الوقت الذي انفتحت فيه الأحياء المشيّدة قريبا على آخر ما جد من المعدات والتقنيات. وهل يكون الكيف إلا من الكم. وهل يكون الرقي إلا بالاعتماد على الأصول.

ولذلك ينبغي الاحتفال بذكرى مرور 1200 على إحداث هذه الحاضر ة التاريخية بقصد أن يعود ذلك بالفائدة عليها. وعلى كل من يريد المساهمة في ذلك أن يلتزم بإنجاز شيء ملموس. وحيث إن فاس فرع من المغرب مثلما أن المغرب هو أصل فاس، فغني عن البيان أن ما يعود بالخير على الجزء فلا بد أن يستفيد منه الكلّ.

إبراهيم بوطالب
مؤرخ
يونيو 2007